بعض انماط
النزوح عن القرية اللبنانية

فؤاد اسحق الخوري

سبق ان عولجت مسألة المهاجرة اللبنانية من خلال زاويتين: الزاوية الاولى التي تبحث في تأثير المهاجرين اللبنانيين على الحياة العامة في لبنان ، والزاوية الثانيـة وهي التي تبحث في مدى تأثير المهـاجرين على الحياة الاجتماعية والاقتصـادية في ديار الهجرة . وتتركز الدراسات التي تعنى بالتأثيرات الداخلية للهجرة في الرفاه الاقتصادي ونظـام الوجاهة والتغيير الاجتماعي بشكل عام . وقد قام عدد من الكتـاب المعروفين ، امثال البرت حوراني (١٩٤٦) وسعيد حمادة (١٩٣٦) ونجيب موصلي (١٩٣٣) وتوفيق توما (١٩٥٨) وغيرهم، بدراسة تأثير الهجرة اللبنانية على الحياة الاقتصادية في لبنان . كما درس عفيف طنوس (١٩٤١ ، ١٩٤٢) وجون غولك (١٩٥٥) وهربرت وليمز (١٩٦٥) تأثير الهجرة في التغيير الاجتماعي . الا انه لم توضع بعـد ، والحق يقال ، اية دراسة موضوعية عن تأثير الهجرة وقوة فاعليتها في تغيير وجه لبنان العام . فما كتب في هذا الموضوع يفتقر الى تحليل دقيق ومنظم .

وكذلك هي الحال بالنسبة للمصادر والدراسات المتوفرة عن اللبنانيين في الخارج . فهي كثيرة ومتنوعة . وتميل اكثر هذه المصادر الى الاشادة باعمال اللبنانيين ومكانتهم الاجتماعية . ولا تخلو هذه الاشادة —في اكثر الاحيان —من المبالغة والمواقف الرومنطيقية. وتتفاوت هذه المصادر في جدية البحث ورزانته . وعلى سبيل المثال فاننا ندعو القارىء لمقارنة كتاب «دليل المغتربين» لادمون سعادة،الذي يحتوي على معلومات اشبه بالمعلومات التي يحتوي عليها دليل للتلفون ، مع كتاب « الهجرة اللبنانية » الذي وضعه بالفرنسية ايلي صفا، وهو كتاب رصين يلخص النفوذ السياسي والاقتصادي للبنانيين في ديار الغربة.

والجدير بالذكر ان اكثر الدراسات التي تعنى بشؤون المهاجرين اللبنانيين في الخارج كانت تشير اليهم وكأنهم جماعة واحدة متجانسة التركيب والاهداف . فليس من دراسة واحدة تفرق بين جماعة وجماعة اخرى من المهاجرين،او تقارن بين تأقلم فئة دون الاخرى، وكيفية تقبلهم للاوضاع العامة في بلاد الغربة . كما انه ما من دراسة واحدة تقارن بين نمـاذج المهـاجرة المختلفة عند اللبنانيين — وعلى الاخص بالنسبة للمهاجرة الخارجية ، اي خـارج لبنان ، والمهاجرة المحلية ، اي النزوح من القرية الى المدينة داخـل لبنان . ويمكن القول هنا ان المهاجرة المحلية في لبنان لم تدرس درساً موضوعياً من قبل . ولهذه

للأسباب ساحاول في هذا المقال ان اقارن بين المسيحيين والمسلمين بالنسبة للهجرة الخارجية وبالنسبة لنزوحهم من القرية الى المدينة وكيفية معيشتهم في المدينة . وساحاول ان ابين العوامل الاجتماعية والاقتصادية التي توجه هذه المهاجرة. واني اتمنى ان يكون هذا العمل فاتحة سلسلة من الدراسات والابحاث العلمية التي تبين واقع الهجرة والنزوح في لبنان. هذا ليتمكن المعنيون بالامر من ضبط وتطوير الهجرة اللبنانية ، الخارجية منها والداخلية .

ويرتكز هذا البحث ، في الاساس ، على احصاء شامل جرى في صيف سنة ١٩٦٥ في كل من بلدتي دوما في لبنان الشمالي وعرمتي في لبنان الجنوبي . كما انه يرتكز على بعض الاحصاءات العامة المتوفرة عن المهاجرين اللبنانيين . وقد اخترت كلا من دوما وعرمتي موضوعا للبحث نظراً لاختلافهما في الدين ولتشابههما في عدة نواحٍ اخرى، مما يجعلهما صالحتين للمقارنة . تقع كل منهما في المنطقة الجبلية الجديدة على ارتفاع الف متر تقريباً عن سطح البحر . وتبعد كلتاهما عن بيروت بعداً متساوياً تقريباً : فدوما تقع الى الشمال الشرقي من بيروت وعلى مسافة ٨٨ كيلومتراً ، بينما تقع عرمتي الى الجنوب الشرقي منها وعلى مسافة ٩٦ كيلومتراً . وكل منهما متساوية البعد عن المركز الرئيسي للحياة العمرانية في لبنان الشمالي والجنوبي على التوالي: فمدينة طرابلس الساحلية في الشمال هي بالنسبة الى دوما ما هي مدينة صيدا بالنسبة الى عرمتي في الجنوب . الا ان البلدتين تختلفان في الايمان الديني . فدوما ، في غالبها ، بلدة ارثوذكسية المذهب ، مع وجود اقلية كاثوليكية و مارونية . وعرمتي شيعية .

وضعت الخرائط للبلدتين، واعطي كل منزل رقماً خاصاً به . ثم اجري احصاء كامل يتناول مجموعات ثلاثا : المقيمين في البلدة من اهلها ، والنازحين عنها الى اماكن اخرى من لبنان ، والمهاجرين منها الى خارج لبنان . واحصي اهل البلدة المقيمون فيها من حيث السن والتكوين الجنسي والعمل والمركز العائلي وعدد الابناء والمدخول. كما قررت مصادر الدخل . وجمعت المعلومات نفسها عن اهل البلدة النازحين او المهاجرين ، بالاضافة الى المعلومات عن امكنة اقامتهم الحالية وتاريخ مغادرتهم البلدة واعمارهم عند حصول ذلك.

اقتصر الاحصاء على مجموع افراد العائلة الواحدة ، التي كانت تشكل في لبنان في الزمن الماضي وحدة استهلاكية – انتاجية موحدة ، او وحدة انتاجية فقط . وتشتمل هذه المجموعة على الاقارب والانسباء المباشرين – اي الوالدين والابناء والاشقاء والشقيقات وذريتهم . اما الاسرة التي لا تتصل بالبلدة عبر هذه القرابة فقد استثنيت من الاحصاء. ولهذه الطريقة بعض المساوىء: اذ ، مثلا ، اصبحت بلدة كدوما ، ذات التقاليد العريقة في الاغتراب ، اقل تمثيلا في احصائنا من عرمتي ، الحديثة العهد في الاغتراب . فمع مرور الوقت تفقد جماعات المهاجرين روابطها العائلية مع البلدة الام. ويفقد المهاجر هذه

الروابط في جيلين . ولنفترض مثلا ان شاباً في الثامنة عشرة من العمر قد هاجر الى البرازيل وبقي شقيقه ابن العشرين في البلدة ، فانه عنـد موت هذا الاخير بعد جيلين يستثنى من الاحصاء ، حسب طريقتنا في البحث ، اقرباؤه ممن هاجروا الى البرازيل .

كان لا بد من اقامة تعداد للمقيمين في كل من البلدتين والنازحين عنها وللمهاجرين منها ، كل جماعة على حدة ، من اجل درس انواع المهاجرة والنزوح في دوما وعرمتي . وفيما يلي نتائج ما توصلنا اليه :

ان سكان دوما وعرمتي يتساويان في اعـدادهم تقريبـاً . لكنهم يختلفون في التوزيع بين الاقامة والنزوح والاغتراب . فبينما نجد ان النازحين عن عرمتي اكثر بكثير من النازحين عن دوما ، نرى ان المقيمين في دوما والمهاجرين منهـا الى خارج لبنان اكثر بكثير من المقيمين في عرمتي والمهاجرين منهـا . فالعوامل الاجتماعية والاقتصادية التي تحفز سكان عرمتي ، من المسلمين الشيعيين ، على النزوح الى مناطق اخرى من لبنان تختلف عن العوامل التي تحفز ابناء دوما ، المسيحيين ، على الاغتراب . وسنبحث هـذه العوامل في الصفحات التالية من هذا المقال .

يوجد في دوما وعرمتي نماذج ديموغرافية عديدة جديرة بان تؤخذ بعين الاعتبـار . غير اننا سنبحث تلك النماذج التي لها علاقة مباشرة بالمهاجرة . واذا ما قارنا نسبة الذكور المتزوجين الى العزاب من المقيمين في كلتا البلدتين ، رأينا ان نسبة الذكور المتزوجين الى العزاب في عرمتي اكبر مما هي في دوما ، بالاضافة الى ان شباب عرمتي يتزوجون في سن مبكرة . ففي دوما ٤٧ عازباً ممن تزيد اعمارهم على ٢٥ سنة ، بينما لا يوجد في عرمتي غير عازب واحد يزيد عمره عن ٢٥ سنة . وينطبق هذا القول على النازحين من كلتا البلدتين . فهناك ٢٦ عازباً بين الـ ٥٨ نازحاً من دوما ممن تزيد اعمارهم على ٢٥ سنة ، ولا يوجد بين الـ ١٥٣ نازحاً عن عرمتي ممن تزيد اعمارهم عن الـ ٢٥ سنة الا ١٢ عازبـاً فقط . ويدل ذلك على ان العوامل الاجتماعية والاقتصادية في دوما التي تعمل على تأخير زواج الذكور تختلف عنها في عرمتي . ويظهر ايضاً ان مغادرة البلدة ـ نزوحاً وهجرة ـ تؤخر في سن زواج الذكور . فالمقيمون في دوما يتزوجون في سن مبكرة اكثر من النازحين عنهـا او المهاجرين منها . وكذلك هو الامر بالنسبة لابناء عرمتي ايضاً . والجدير بالتأكيد هو ان هذا الفرق في سن الزواج بين المقيمين من جهة وبين النازحين والمغتربين من جهة اخرى ، هو نتيجة ارتفاع المستويات الاجتماعية والاقتصادية التي تبعثها المهاجرة والنزوح في النفوس .

وكما هي الحال بين الذكور كذلك هي الحال بين الاناث اللواتي تزيد اعمارهن عن ٢٥ سنة . فنسبة المتزوجات بين صبايا عرمتي ممن تزيد اعمـارهن عن ٢٥ سنة اعلى من نسبة

المتزوجات في دوما ، كما انهن يتزوجن في سن مبكرة. فهناك ٢٤ عزباء بين الـ ٢٥٠ انثى مقيمة في دوما سنهن فوق الـ ٢٥، بينما لا توجد الا عازبتان فقط بين الـ ١١٢ انثى مقيمة في عرمتي من مجموعة السن نفسها . كما ان ١٠ من الـ ٤٧ من اناث دوما النازحات عازبات ، بينما النسبة في عرمتي هي ٣ من ١٢٧ . هـذا بالنسبة للمقيمات في عرمتي ودومـا . ويختلف الامر بالنسبة للنازحات والمهـاجرات من كل من البلدتين . ان نسبة المتزوجات الى العازبات بين المقيمات في دوما هي اكبر من نسبة المتزوجات الى العازبات بين المهاجرات والنازحات . وتؤخر هجرة الاناث من دوما في سن زواجهن . كما انها تزيد في نسبة العوانس بينهن. ويدل هذا على ان اناث دوما يختبرن بالنزوح او الهجرة متطلبات اجتماعية واقتصادية مختلفة تؤخر سن زواجهن . ويظهر ان اناث عرمتي لا يختبرن مثل هذه المتطلبات بعد ان يغادرن بلدتهن . فمن بين اناث عرمتي الـ ١١٢ المقيمات هناك اثنتان فقط بلغتا الـ ٢٥ ولم تتزوجا ، ولم تبلغ اي منهما الـ ٤٥ دون زواج . يقابـل هـذا ٢٤ عزباء في دوما ممن بلغ سنهن الـ ٢٥، وهناك ٩ ممن بلغن الـ ٤٥، ولم يتزوجن بعد . اما بالنسبة للنازحـات فاننـا نرى ان بين الـ ١٠ عازبات النازحات عن دوما ٧ ممن بلغ سنهن الـ ٤٥ دون زواج ، وليس بين النازحات عن عرمتي واحدة دون زواج ممن بلغ سنها الـ ٤٥ — مع العلم بان عدد المتزوجات النازحات عن عرمتي قد بلغ الـ ١٢٧ .

يتساوى عدد كل من دوما وعرمتي تقريبا . غير ان المقيمين من ابناء دومـا في بلدتهم يزيدون عن المقيمين من ابناء عرمتي فيها . ثم ان النازحين عن عرمتي اكثر من النازحين عن دوما، بينما يبلغ المهاجرون من دوما اكثر من عشرة اضعاف المهاجرين من عرمتي. ويسكن نصف النازحين عن دوما في بيروت، والربع في طرابلس ، ويتوزع الربع الباقي في احدى عشرة بلدة لبنانية . ومعظم النازحين (اي ٩٧٪) عن عرمتي يقيمون في بيروت، ويتوزع الـ ٣٪ الباقون بين ٦ قرى في لبنان الجنوبي . ويتجه النازحون من اهل عرمتي الى بيروت نحو التجمع في قطاعين من العاصمة ، بينما لا يتجمع النازحون عن دوما حول بعضهم بعضا. ويميل المسلمون الشيعيون من عرمتي الى الاقامة في جوار بعضهم بعضا ، ويميل المسيحيون من دوما الى التفرق . واننا نجد ظاهرة التجمع هذه عند النازحين عن عرمتي الى بيروت عند المهاجرين من البلدة ذاتها الى الارجنتين ، حيث يقيم معظم المغتربين من عرمتي . امـا مغتربو دوما فقد هاجروا الى ثلاث عشرة دولة منتشرة في خمس قارات مختلفة. وعلى عكس هجرة ابناء عرمتي الى الارجنتين ، التي ابتدأت وتوقفت في العقد الثاني من هذا القرن ، فقد بدأت الهجرة من دوما قبل العقد المذكور ولم تنقطع منذ الشروع بها. فما هي العوامل التي تقرر الهجرة من هاتين البلدتين ؟ وما هي العوامل التي شجعت ابناء عرمتي الشيعيين

على التجمع في امكنة النزوح وديار الاغتراب ، وشجعت ابناء دوما المسيحيين على التفرق؟

خلافا للمسلمين السنيين الذين يشكلون غالبية مدن الساحل في لبنان، عرف المسيحيون والشيعة ، تاريخيا على الاقل ، بأنهم جبليون . صحيح ان بعض الجماعات الصغيرة الملتفة على نفسها ، من المسيحيين والشيعة ، قد سكنت في مدن الساحل ، لكن المسلمين السنيين كانت لهم هم الغلبة حضاريا . وانتقال المسيحيين او الشيعة من منطقة جبلية الى اخرى امر معروف في التاريخ اللبناني، الا ان هجرتهم الى مدن الساحل حركة حديثة العهد. وتتشابه اختبارات المسيحيين والشيعة بيئيا : فقد تعودت الجماعتان على حياة القرية ، الا انهما تختلفان عند النزوح عن القرية. فيميل الشيعة الى النزوح الى بيروت، بينما يميل المسيحيون الى الهجرة الى بلاد اجنبية . ويظهر ان حياة المدينة في بيروت تجتذب الشيعة اليها اكثر مما تجتذب المسيحيين . وهناك اسباب مباشرة واسباب غير مباشرة تفسر هذا الفرق .

من الاسباب غير المباشرة ، العلاقة بين حياة المدينة وممارسة العبادات الشيعية وبين حياة المدينة وممارسة الطقوس المسيحية . فالمدينة، بالنسبة الى الشيعي ، تؤمن له جوا مناسبا لممارسة قوانينه وعاداته . فعلى عكس الزراعة، تتألف القاعدة الاقتصادية للمدن من خدمات تتقيد ببرنامج دقيق . اما العمل الزراعي فيتوقف على الطقس والجهد البشري ويصعب توقيته بدقة . ان طرق الصلاة عند الشيعيين ، واحتفالاتهم الدينية الموسمية ، تتطلب دقة في التوقيت ، وبذلك تناسب المدينة ، بامكاناتها وخدماتها ، اداء الواجبات الدينية على وجه افضل . كما انها تسهل تطبيق الشرع بفضل وجود المشترعين فيها. فالمدينة في العالم الاسلامي « قلعة الايمان » ويقام فيها معظم النشاطات الدينية . ثم ان حياة المدينة تناسب موقف المسلمين ازاء النساء . فبدلا من ان تشارك الفتاة الرجل في عمله الشاق في الريف تقصر فتاة المدينة نشاطها على العمل المنزلي .

اما بالنسبة للمسيحية فلا يوجد فرق كبير -- اذا كان ثمة من فرق — لدى المؤمن في ما اذا كان يقيم في مدينة او قرية . فكلا المكانين يناسب تنفيذ التعاليم المسيحية . بل ان انزواء القرويين نسبيا اقرب الى التنسك الرهباني من حياة سكان المدن المهووسين بالربح . وبما ان حياة المدينة اصلح لتنفيذ التعاليم الاسلامية من حياة الريف ، فاننا نتوقع ان نجد ان المسلمين اكثر من المسيحيين نزوحا الى المدن عندما تتساوى فرص النزوح عند كلا الفريقين.

وهناك اسباب مباشرة تفسر لنا مظاهر نزوح الشيعيين الى المدن اللبنانية واغتراب المسيحيين الى الخارج . فان للمسيحيين ذكريات غير طيبة في مدن الساحل اللبناني. وقد استطاع المسيحيون ان يتعايشوا والاغلبية السائدة من السنة في مدن لبنان شرط احتكار السنة للمراكز القيادية في هذه المدن . وهذا ما يفسر لنا استئثار المسيحيين من ساكني المدن للحرف المهنية، كالصياغة والحياكة والحدادة وغيرها ، بينما بقي اهل السنة في

الوظائف الادارية .

وهناك ايضاسبب تاريخي ، وهو ان المسيحيين – منذ القدم – قد اموا جبل لبنان تجنبا لوسائل الارهاب والضغط والاضطهاد التي تعرضوا لها في الداخل . واتخذ المسيحيون لانفسهم ملجأ في جبال لبنان، لا في مدنه الساحلية حيث لا يتمكنون من ممارسة حرياتهم الدينية والاجتماعية بتصرف تام . كما انهم لا يتمكنون من ادارة شؤونهم بانفسهم نظرا لاستئثار اهل السنة بالحكم وتفرعاته الادارية .

وقد يعترض القارىء على هذا القول ، بان شيعيي لبنان هم ايضا لاجئون نجوا من ضغط الجماعات السنية السائدة في الداخل ، فلماذا ينزحون اذاً نحو المدينة حيث تسود جماعة السنة نفسها ؟ للجواب على هذا التساؤل جانبان : احدهما يتعلق بقيام السلطة الوطنية في لبنان ، والآخر بالاختبارات التي مر بها اهل الشيعة في ديار الغربة . فقيام السلطة المركزية قد جعل امر المعايشة بين الطوائف الدينية في لبنان امرا معقولا ومقبولا – والى حد ما مفروضا. وهذا ما تم بالفعل عند تأسيس دولة لبنان الكبير كجمهورية مستقلة. لقد روعي التوزيع الطائفي في الادارة ومرافق الحكم ، غير ان الحكم نفسه والادارة ذاتها ليست لطائفة دون الاخرى والحكم – كما يتمثل بالنظام البرلماني – هو للبنانيين جميعا ، كمواطنين في الدولة . ولما قام النظام البرلماني في البلاد زالت دولة الطوائف التي كانت متبعة في العهد العثماني . وقد زال معها بشكل تدريجي انطواء الطوائف على ذاتها، اذ اصبحت حماية المواطن – ولو نظريا – هي من مسؤوليات الدولة لا مسؤوليات الطائفة. فكلما اشتدت قوة النظام البرلماني كنظام « اكسترا » طائفي ، تقلصت الفجوة بين الطوائف واخصها بين السنة والشيعة . ذلك لان تقاليد اهل الشيعة والسنة وان اختلفت فانها تعود في النهاية الى مصدر واحد ، الا وهو الاسلام . ولذلك نرى ان الفرد الشيعي اقدر من المسيحي على تقبل الدعوات القومية – الدينية التي تجتاح الشرق الاوسط اليوم . فالمسيحيون يؤمنون بقوميات علمانية لا ترتكز على الاستعطاف الديني. فليس من العجب بشيء ان نرى بعض رجال الفكر الارثوذكسي سباقين الى تأسيس الدعوات القومية العلمانية ، كالقومية العربية والقومية السورية . ان قلة عدد الارثوذكس نسبيا وعدم تمكنهم من الوصول الى المراكز الادارية في الدولة التي هم منها، بسبب اعتماد هذه الدول (ومنها لبنان) القاعدة الطائفية اساسا لهذه المراكز وغيرها من الفرص المتوفرة – كل هذه تجعل الارثوذكس اكثر نشاطا في اعادة صياغة هذه المجتمعات على اسس قومية علمانية. ففي الدولة العلمانية تتساوى الحقوق والواجبات . ان حساسية الارثوذكس لوضعهم المتأرجح في لبنان جعلهم يتطلعون الى عالم آخر . فكان الاغتراب .

وهناك العلم ، وهو احد العوامل المباشرة للاغتراب . ان المزيد من العلم والتقدم فيه

يتطلبان فرصا اوسع واشمل . ومستوى العلم في دوما اعلى منه في عرمتي . لذلك فان ابناء دوما المتعلمين اكثر رغبة من ابناء عرمتي للسفر الى الخارج للبحث عن عمل بسبب ضآلة مجالات العمل في لبنان . فان ٣٧ من خريجي المعاهد العالية من دوما يعملون خارج لبنان ، بينما لا يوجد اي خريج جامعي من عرمتي خارج لبنان .

ان شعور الارثوذكس بان حقوقهم مهضومة وبان مجالات العمل امامهم محدودة قد حملهم على السعي وراء العمل في ديار الاغتراب . ومن هذه الناحية يختلف ارثوذكس دوما عن شيعيي عرمتي . فالشيعيون يحسون بالتزام اكبر تجاه العيش في بلادهم . فليس في عرمتي اقوال تذمرية تدل على عدم تقبل الشيعة للوضع الذي هم فيه . بل ان عددا من المهاجرين العائدين الى عرمتي يتندرون عن الحوادث المزعجة التي اختبروها في الخارج . « الحياة في الخارج شاقة وتتطلب تضحيات كثيرة » ، قال عجوز عاد الى عرمتي من شيكاغو . قارن هذا القول مع ما قاله مهاجر من دوما كان في كاليفورنيا : « اذهبوا الى كاليفورنيا . فانكم على الاقل تنقذون ابناءكم » .

من الخطأ الاعتقاد ان اهل الشيعة لا يشجعون المهاجرة . فقد هاجر عدد كبير منهم الى افريقيا الغربية ولا يزالون يهاجرون الى هناك . اما الذين هاجروا الى العالم الجديد فانهم لم يتمكنوا من المضي بهجرتهم . وعندما يهاجرون فانهم يميلون الى عزل انفسهم في قسم معين من المدينة . وقد يكون هذا العمل انعكاسا للضغط الحضاري الذي يتعرضون له في العالم الجديد . فالنمط الانكلوسكسوني السائد في امريكا الشمالية يتعارض والتعاليم والعبادات الشيعية . اما في افريقيا الغربية فان الشيعيين لم يجابهوا مشكلة من هذا النوع . بل على العكس ، فان الشيعة بالنسبة للسكان الاصليين في افريقيا نماذج يحتذى بها ، اذ ان كثيرا من هؤلاء السكان قد اعتنقوا الاسلام حديثا وينظرون الى المسلمين نظرة الاكبار . وينظر الشيعي بريبة الى النمط الغربي ، غير ان المهاجر المسيحي يتطلع اليه باعجاب اصيل . ولعل مسيحيي الشرق الاوسط مهيؤون نفسيا لتقبل النماذج الغربية ومحاكاتها . فمن المتوقع اذاً ان نرى مسيحيي الشرق اشد رغبة من المسلمين في الاغتراب .

لماذا يتجمع شيعيو عرمتي في بيروت حول بعضهم بعضا ولا يفعل مسيحيو دوما كذلك ؟ من الاسباب غير المباشرة لتجمع الشيعيين هو صفة زواجهم من قريباتهم في مجموعاتهم العائلية ، اي زواج بنت العم . فان التجمع يسهل تطبيق احكام الزواج والارث والوراثة التي يفضل الشيعيون حصرها ضمن ابناء العائلة نفسها . اما مسيحيو دوما فانهم يقبلون باحكام الزواج من الاقارب ولكنهم لا يمارسونها كثيرا .

وهناك اسباب مباشرة لهذا التجمع . فالنازحون الى بيروت من اهل عرمتي يعملون في مهن متشابهة الى حد ما . فمعظمهم سائقو سيارات او رجال شرطة او بائعو خضار

متجولون او عمال بالاجرة اليومية . وهذه كلها تتساوى تقريبا من حيث المدخول والمرتبة . ولذلك فمن المتوقع ان يعيشوا في اقسام المدينة التي تتشابه درجتها الاجتماعية . ويتبع ابناء الاسرة النازحة الواحدة المهنة نفسها عادة . فمعظم النازحين من آل الحاج يعملون كسائقي سيارات عمومية وتاكسي او رجال شرطة (تجدر ملاحظة هذه القرابة الغريبة بين سائقي السيارات العمومية ورجال الشرطة — وقد تفسر الى حد التهاون الحاصل في قوانين السير في العاصمة اللبنانية) . ومعظم النازحين من آل مزهر يعملون كبائعي خضار متجولين ، وآل حيدر كسائقي عربات للترام قبل توقيفها في ١٩٦٥ . ان هذه العوامل كلها تشجع على التجمع ولكنها لا تقرره .

اما النازحون من دوما فانهم يعملون في مهن متنوعة ومختلفة الدرجات في الاهمية . بعضهم اطباء صحة واطباء اسنان ومحامون ، وبعضهم صحافيون وموظفو حكومة ومعلمون وفنيون وخياطون . القليلون منهم فقط يعملون كسائقي سيارات عمومية او رجال شرطة او عمال . ثم ان ابناء الاسرة الواحدة يعملون في مهن مختلفة . ويختلفون في المدخول والمركز الاجتماعي . وبذلك لا يتوقع من النازحين عن دوما ان يتجمعوا في اماكن خاصة بهم . انهم لا ينتشرون ويتوزعون في المدن والقرى المختلفة في لبنان ، فحسب ، بل ايضا في قطاعات مختلفة في المدينة الواحدة وفي شوارع مختلفة في القطاع الواحد . والجدير بالذكر هنا — على سبيل المثال لا الحصر — ان النازحين عن الريف المصري الى القاهرة يتجمعون في قطاعات معينة في المدينة تماما كما يفعل اهل عرمتي .

يتزوج ذكور عرمتي واناثها في سن ابكر مما هي عليه في دوما . ونسبة المتزوجين ، من الذكور والاناث ، ممن بلغوا سن الـ ٢٥ في عرمتي هي اعلى بكثير مما هي عليه في دوما . وتنطبق هذه الملاحظات على نازحي البلدتين . فالنزوح والهجرة من دوما كلاهما يؤخر في سن الزواج عند الذكور والاناث . اما في عرمتي فسن الزواج عند الذكور فقط هي التي تتأخر ، اما عند الاناث فلا تتأخر . فما هي الاسباب التي تفسر هذه الاختلافات بين دوما وعرمتي ؟

ان معنى الزواج في دوما يختلف عنه في عرمتي . فالزواج عند اهل دوما استقرار يتحقق بعد ان يركز الرجل نفسه اقتصاديا واجتماعيا . الزواج في عرفهم هو « تأسيس بيت » ، ليضع حدا لفترة الاعتماد على الاهل في حياة الرجل والمرأة . وينتظر من المقدم على الزواج في دوما ان يكون قد استقر في عمل دائم . فالاستقرار في عمل ما هو من متطلبات الزواج الاساسية بالنسبة للرجل . اما العروس فلا ينتظر منها عادة ان تسهم في تأسيس البيت ، الا اذا توفرت « الضاطة » — وكثيرا ما تتوفر في هذه الايام . ان اهالي

دوما ينظرون الى الزواج كقران بين شخصين قادرين على ممارسة مسؤولياتهما العائلية .

اما اهل عرمتي فينظرون الى الزواج كنقطة تحول في حياة الفرد . « الزواج يصيّر الولد رجلا » ، كما يقولون. وقلما يسأل المقدم على الزواج عن طبيعة عمله واستقراره المالي او استقلاله الاجتماعي والاقتصادي . ويقول اهل عرمتي في هذا المضمار : « الزواج مهر من حصل عليه تزوج » . وكثيرا ما يكون المهر الف ليرة لبنانية . ان الزواج في عرمتي اختبار دراماتيكي ، نقطة تحول ، يتطلع اليها كل فرد .

من السهل ارجاع الفرق بين اهل دوما وعرمتي بالنسبة للزواج الى مصادره الدينية من معتقدات وفرائض . بيد ان هذا الفرق هو اعمق من ذلك بكثير . ان الفرق بين دوما وعرمتي يعكس مدى خضوع كل من البلدتين لعوامل التغيير الاجتماعي . وكما ذكرت اعلاه فان مستوى التعليم عند اهالي دوما المقيمين فيها او النازحين عنها والمهاجرين منها اعلى بكثير من مستواه عند ابناء عرمتي . وعلاوة على ذلك فان هناك عاملين آخرين يفسران الاختلافات بين البلدتين . يتعلق الاول بأثر المهاجرين في حياة البلدة، ويتعلق الثاني بالوضع الاقتصادي في البلدتين .

وكان عدد لا بأس به من المقيمين في دوما قد سافر منها الى الخارج من قبل . وعاد بعضهم الى البلدة نهائيا ، بينما يقيم البعض الآخر فيها اقامة مؤقتة . وقد مارس المغتربون منذ زمان تقليد العودة من ديار الغربة الى الوطن الام . والعاملان الرئيسيان في عودة المغتربين الى دوما عودة نهائية هما التقدم في السن والنجاح في الخارج . لكن ليس كل من حقق نجاحا كبيرا في الخارج يعود الى دوما . فبعضهم يستقر في المهجر استقرارا نهائيا، وخاصة في اقطار امريكا الشمالية ، والى حد اقل في امريكا الجنوبية. ومن الجهة الاخرى فان الذين يعودون الى دوما لفترة من الوقت يفعلون ذلك ليتزوجوا او ليبنوا بيتا. فبناء البيت في الضيعة ضروري لبناء السمعة الجيدة في مجتمعي الوطن والمهجر. وتصرف على هذه البيوت الحجرية الزاهية الكبيرة ذات الاساس الحسن اموال طائلة . وقد صدق الذي قال في دوما : « ان دوما مقبرة من البيوت ».

اما عرمتي فانها تختلف اختلافا جذريا عن دوما. الهجرة في عرمتي ضئيلة. فقد بدأت في اوائل هذا القرن — كما في دوما . والذين هاجروا منها عادوا اليها عودة نهائية لا بسبب تقدم السن او النجاح ، انما عادوا لانهم لم يكونوا سعداء في المهجر. هناك ثلاثة افراد فقط عادوا من الارجنتين الى عرمتي ولا يزالون يتشوقون الى الحياة في الارجنتين ، وهم ام وابنتاها . وهن تعيسات في عرمتي وتتناولهن السنة الاغتياب ويتهمهن اهل القرية « بانهن يلبسن البنطلونات في المنزل ، ويتنزهن على الطريق العام كل مساء ، ويتكلمن مع الرجال بحرية ، ويحدقن فيهم » . ويجب التأكيد هنا على ان ما هو مصدر للاقاويل في عرمتي انما

هو انموذج للمحاكاة في دوما ، حيث يترك المغتربون اثرا حضاريا واضحا .

ان عودة المغتربين الى ديارهم ، والتثقف الحضاري ، يسهمان في رفع المتطلبات الاقتصادية في لبنان عامة وفي دوما خاصة . لذلك يقبل اهل دوما على البضائع الاستهلاكية ، بينما يقبل اهالي عرمتي على ضروريات الحياة ، مكتفين بها . ويبلغ معدل دخل الفرد السنوي للمقيمين في عرمتي ٢٤٨ ليرة لبنانية ، بينما هو ١١٧٥ ليرة للمقيمين في دوما . غير ان معدل حجم العائلة في عرمتي (٤،٧١) يشكل تقريبا ضعف المعدل في دوما (٢،٧٩) . ان الوضع الاقتصادي المتقدم في دوما ، والتوكيد على كل من الاستقرار الاقتصادي والاستقلال العائلي كأمور ضرورية للزواج ، كلها تؤخر في سن الزواج . فالمرء يحتاج الى بعض الوقت ليحقق هذه الشروط استعدادا للزواج.

واذا نحن قارنا هذا الوضع في دوما مع الوضع العام في عرمتي لرأينا ان تباطؤ نمو المتطلبات الاقتصادية في هذه البلدة يعود الى عدم وجود وسائل التغيير فيها. فالمتعلمون والاغنياء وغيرهم من قدوات التغيير يعيشون خارج بلدة عرمتي . ولم لا ، طالما انه من الممكن ان يبني المرء سمعة طيبة في عرمتي وهو خارجها ، يعيش في المدن الساحلية ؟ الوجاهة في عرمتي قد تأتي من التصرف اللائق خارج البلدة . اما في دوما فيجب تحقيق الوجاهة بتصرف لائق داخل البلدة لا خارجها . ويمكن تعميم هذا التباين بين دوما وعرمتي ليشمل قرى لبنانية اخرى . فاذا اعتبرنا القرى المسيحية جملة لرأيناها تتصف بسعة الحال والبحبوحة اكثر من القرى الشيعية . ولهذا التباين اسباب عديدة ، اهمها ميل المسيحيين الى تمكين انفسهم (اي تأسيس بيت) في قراهم اولا ، ومن بعد ذلك يأتي النزوح الى المدينة اذا شاؤوا . اما الشيعيون الناجحون فيميلون الى تمكين انفسهم في المدينة اولا حتى ولو ادى ذلك الى ترك القرية . هناك عدد كبير من المهاجرين الشيعة في افريقيا الغربية الذين ، بالرغم من غناهم ، قد اهملوا تحسين بيوتهم في قرى لبنان . وقلما يحدث ذلك بين المهاجرين المسيحيين . وقد يجوز القول هنا ان واجبات القرابة (بل والواجبات الدينية ، كالصدقة مثلا) تضع عبئا على كاهل الاغنياء من الشيعة وتدفعهم الى التخلي عن مجتمعهم الذي يتمسكون به ، حين تضحي هذه الواجبات باهظة الثمن .

والهجرة ايضا تؤخر في سن زواج المهاجرين. انها تزيد في المتطلبات الثقافية والاقتصادية وتخلق اذواقا وحاجات جديدة . ومستوى الثقافة عند المهاجرين من كلتا البلدتين اعلى من المستوى الثقافي بين المقيمين فيهما. زد على ذلك ان معدل مدخول الفرد يتضاعف تقريبا عند المهاجرين ، وينقص معدل حجم الاسرة قليلا. ثم ان التعلم وارتفاع المدخول يزيدان في نسبة المهاجرين من القرية : فيسعى المتعلمون وراء الوظائف المحترمة المتوافرة في المدن . فالتعلم والعمل اليدوي بالنسبة الى معظم اللبنانيين ضدان لا يلتقيان . ويسود

الاعتقاد في لبنان بان العمل اليدوي يخفض من المستوى الاجتماعي للفرد . وهنا يكمن سر النزوح الى المدن، حيث ان المجالات المرغوبة –بفضل الثقافة والمدخول الجيد – لا يتوافران الا في مدن لبنان . ولذلك فان التسهيلات الموجودة في المدينة قد تجذب الكثيرين من اصحاب المدخول الجيد ، حتى وان جرى كسب هذا المدخول في القرية ذاتها . فجمع المال في القرية يسهم الى حد كبير في فسح المجال للنزوح عنها . وقد نزحت اربع عائلات من عرمتي الى صيدا واستقرت فيها بسبب المدخول الجيد الذي كان افرادها يحصلون عليه من زراعة التبغ في قريتهم .

ليس كل من هاجر من عرمتي او من دوما تأخر في زواجه . فالمهاجرات من عرمتي لا يفعلن ذلك ،مع العلم ان المهاجرات من عرمتي ومن دوما يتزوجن في سن ابكر من سن زواج الذكور. والسبب في ذلك واضح. فالشبب عندنا عماد الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العائلة . ويطلب من الشاب ، كشرط للزواج ، ان يكون ذا مركز حسن . بينما يطلب من الانثى ان تكون جميلة وممشوقة القد . ويحتاج تحقيق المركز الاقتصادي والاجتماعي الى زمن ، بينما يذبل الجمال والقد المياس مع الزمن . ولذلك يفاخر الرجل عندنا بزواجه من ابنة السبعة عشر عاماً. مما يدل على ان هذه السن هي السن المفضلة لارضاء رغبات الرجل .

غير ان السؤال الاساسي ما يزال قائماً : لماذا يؤخر النزوح في سن زواج النازحات عن دوما ولا يؤتي المفعول ذاته في عرمتي ؟يكمن الجواب على هذا السؤال في موقف البلدتين تجاه النساء . ان اللواتي يذهبن الى المدرسة من النازحات عن دوما هن اكثر من النازحات عن عرمتي . وهن يحصلن على درجة اعلى من العلم . ويحصل بعضهن على وظائف خارج المنزل ، كسكرتيرات ومعلمات وخياطات . ولكن ليس بين النازحات عن عرمتي من تعمل في وظيفة كهذه . ويفقد الرجل شيئاً من صفات الرجولة والمهابة عندما يسمح لقريبته بالعمل خارج المنزل . والجدير بالتأكيد ان هذه ظاهرة تجدها في عرمتي اكثر مما تجدها في دوما . وتعيش النازحات عن عرمتي اما مع آبائهن او مع اقارب حميمين لهن ، بينما تعيش تسع من النازحات عن دوما لوحدهن . وتقوم فتيات دوما بدور اكبر في المفاوضات من اجل زواجهن مما تفعل فتيات عرمتي . ثم انه ما دامت متطلبات الزواج الاقتصادية والاجتماعية عند الذكور في دوما هي اعلى منها في عرمتي ، لذلك كان من الطبيعي ان تتزوج فتيات دوما في سن متأخرة عن سن زواج فتيات عرمتي .

الخلاصة، ان لاهل دوما و عرمتي اطارات متماثلة من حيث اثر البيئة والموقع الجغرافي وعدد السكان. لكنهم يتبعون انمطة مختلفة في الهجرة والنزوح. فشيعيو عرمتي ينزحون الى بيروت، ومسيحيو دوما يهاجرون الى خارج لبنان. وبينما يتجمع الشيعيون في بيروت

في قطاعين من المدينة ، يتوزع المسيحيون في القطاعات المختلفة وفي الشوارع المختلفة من القطاع الواحد . ويلاحظ ايضاً ان الذين يتزوجون في عرمتي هم اكثر منهم في دوما . كما انهم يتزوجون في سن ابكر. والهجرة والنزوح من البلدتين يؤخران سن زواج المهاجرين والنازحين ، باستثناء النازحات والمهاجرات من عرمتي لوحدها ، اللواتي لا يجري اي تبدل في سن زواجهن .

ان تعليل هذه الاختلافات الديموغرافية المتعلقة بالمهاجرة بين شيعيي عرمتي ومسيحيي دوما يعود الى عدة اسباب ، بعضها مباشر وبعضها الآخر غير مباشر . فقولنا مثلاً ان الشيعيين ينزحون الى بيروت لان حياة المدينة تناسبهم في اداء فرائض الشرع هو سبب غير مباشر . كذلك فان قولنا ان الشيعيين يميلون الى التجمع والتناسل اكثر من المسيحيين بدافع من معتقداتهم انما هو تعقيد لجواب قد يكون بسيطاً .

تجذب الفرص المتوفرة في المدن اللبنانية اهل عرمتي من الشيعة اكثر مما تجذب اهل دومـــا من الارثوذكس . ولهذه الظاهرة اسباب عديدة ومباشرة . فاهـــل عرمتي يستجيبون لسوق العمل في بيروت ، الذي لا يتطلب اكثر من حد ادنى من التعلم والتدريب الفني ، بسبب نقص في تحصيلهم العلمي. اما تعلم ابناء دوما وخبرتهم الفنية فقد اهلتهم لفرص العمل الموجودة خارج لبنان ، اذ ان مجال العمل لاصحاب المهن العالية محدود في لبنان . هناك جانب كبير من الحقيقة في القول التالي : « احصل على شهادة في الحقوق او الهندسة او الطب ، وستضطر الى الهجرة من بلدك » . غير ان النقص في تعلم شيعيي جنوب لبنان لم يحرمهم قط من الهجرة الى افريقيا الغربية ، مما يشير الى ان توقف الهجرة من عرمتي في العقد الثاني انما كان بسبب الاختبارات السيئة التي تعرض لها الشيعيون في العـــالم الجديد . ومـــا ان تتوقف الهجرة في بلدة مـــا مؤقتا حتى تنقطع نهائياً . ولو ان شيعيي عرمتي هاجروا الى افريقيا الغربية لكانوا واصلوا الهجرة الى هـــناك ، كما يفعل شيعيون آخرون في المنطقة .

يضاف الى ذلك ان الارثوذكس في دوما يشعرون بانهم على هامش الحياة في المنطقة ، وانهم ، عاجلا او آجلا ، سيغمرهم تيار الاغلبية السائدة التي اخذت تحقق لنفسها السيطرة. لذلك فهم يفضلون الاغتراب. الا ان التقاليـــد العربية والاسلامية للشيعيين تعدّهم لتقبل مثل هذه الحركات القومية .

اما الاسباب المباشرة التي تدعو الى تجمع المغتربين والنازحين من اهل عرمتي وتفرق المغتربين والنازحين من اهل دوما فهي كثيرة ومختلفة . فالمهاجرون والنازحون من اهل عرمتي هم جماعة متجانسة الى حد بعيد . وهم يعملون في مهن متشابهة ذات مداخيـــل ومراتب متساوية تقريباً . ويختلف هذا الوضع عن وضع اهل دوما ، الذين يختلفون

ثقافيا ومهنيا وفي المداخيل والمراتب والعلاقات العائلية . ولذلك ينتظر منهم ان يتوزعوا لا ان يتجمعوا. ويتوقع من اهل عرمتي ان يتجمعوا بفضل تجانسهم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ايضا . صحيح ان الصفة العائلية في الزواج والميراث والوراثة عند اهل الشيعة تشجع على التجمع ، لكن أهي هذه التي توجه التجمع ام لا ؟ هذه مسألة معقدة يصعب التأكد منها،لان الاغنياء والمتعلمين الاقرباء من الشيعة لا يتجمع بعضهم قرب البعض الآخر.

ثم ان هناك اسبابا مباشرة اخرى تفسر لنا ارتفاع نسبة الزواج وارتفاع معدل عدد افراد الاسرة الواحدة وانخفاض سن الزواج عند اهل عرمتي ، بالنسبة الى اهل دوما . فان الناس حينما يتناسلون لا يفكرون بالواجبات الدينية ولا بالمكاسب او الخسائر المادية. ان ما يدفع الناس الى الزواج وانجاب الابناء والهجرة هو نظام متفاوت من القيم والقواعد الاجتماعية والمتطلبات الاقتصادية . واهل دوما اكثر تحسبا وتحمسا لمراكزهم الاجتماعية والاقتصادية من اهل عرمتي . وبالرغم من ان معدل الدخل الفردي في السنة في دوما اربعة اضعاف ما هو عليه في عرمتي ، ومعدل حجم الاسرة في عرمتي ضعف ما هو عليه في دوما ، فان ابناء دوما اقل اطمئنانا الى حالتهم الاقتصادية من ابناء عرمتي . ويبدو ان ارتفاع مستوى المعيشة يقلل من اطمئنان الفرد لحالته الاقتصادية ، وان الاقتصاد المتواضع يؤمن طمأنينة اعم واشمل . مثالا على ذلك : فاننا نرى ان متطلبات الزواج في دوما اكثر تعلقاً بالاستقلال الاقتصادي والاستقرار المهني مما هي عليه في عرمتي . فالزواج في دوما هو استقرار اقتصادي واجتماعي ، اما في عرمتي فهو نضوج ونقطة تحول في حياة الفرد . لهذه الاسباب يغترب ابناء دوما،ويسعون وراء العلم ، ويؤخرون سن الزواج ، ويحددون نسلهم، ويحاولون التحرر من واجبات القرابة والفروض الاجتماعية. والواقع ان انتشارهم في مناطق كثيرة يسهم في تخفيف عبء هذه الواجبات عن كواهلهم.

ويبدو ان الاغتراب يولد وعياً اجتماعياً-اقتصادياً. فاذا استثنينا المهاجرات والنازحات من عرمتي لوجدنا ان سائر المهاجرين والنازحين - ذكوراً واناثاً - يتزوجون في سن متأخرة عن سن زواج المقيمين والمقيمات في القرية . وفي نفس الوقت يبدأ معدل حجم الاسرة عندهم بالانخفاض. ومن المنتظر ان يكون الذكور اكثر استجابة للتغيير من الاناث، لانهم هم محور العائلة اقتصادياً واجتماعياً ، وهم ايضا الذين يشرعون في ترتيبات الزواج.

يؤكد التباين الديموغرافي والاغترابي الحاصل بين اهل دوما وعرمتي على ان التغيير في عقول الناس هو الذي يؤدي الى النمو الاقتصادي اكثر مما يؤدي النمو الاقتصادي الى تغيير في عقول الناس . والا فان « لعنة الفقراء هي فقرهم » . ان الاقتصاد المتواضع ، وقلة التعلم ، وضخامة الاسرة ، والزواج المبكر ، وقلة الاغتراب، وغياب نماذج التغيير في عرمتي ، هذه كلها لا تحفز اذهان الناس على التغيير .